مجلة تدبر

مجلة دورية علمية محكمة تعنى بتحكيم ونشر البحوث والدراسات المتصلة بمجالات تدبر القرآن الكريم، وتصدر مرتين في السنة

العدد التاسع - السنة الخامسة. محرم ١٤٤٢هـ، الموافق أغسطس ٢٠٢٠م

﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]

موضوعات العدد:

- استخراج القواعد البلاغية من القراءات القرآنية «دراسة تطبيقية»
  د. طلال بن أحمد بن علي بن محمد
- الإيجاز الأسلوبي في تفسير أبي السعود تفسير سورة آل عمران أنموذجا
  د. ميلود عزيبة
- عربية القرآن الكريم بين معهود العرب ومعهود القرآن
  بشرى باجي
- أسباب حفظ النعم ودفع النقم في ضوء القرآن الكريم
  د. منيرة بنت عبد العزيز بن علي السعوي
- دلالات سبع وجوب اتباع السنة النبوية في القرآن الكريم «دراسة تحليلية»
  د. بسام مفتاح الأغبر
- تقرير رسالة علمية بعنوان: الشيخ عبد الرحمن السعدي وجهوده في تدبر القرآن الكريم
  زكريا بن عبد الرحمن بن محمد بافضل
- تقرير عن نتاج مشكاة التابع لمركز تفسير للدراسات القرآنية
- تقرير عن ملتقى: التجديد في التفاسير المعاصرة: «عرض ونقد»

مجلة تدبر

الإعجاز الأسلوبي في تفسير أبي السعود
تفسير سورة آل عمران أنموذجا

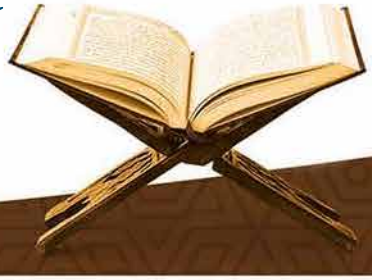

د. ميلود عرنيبة

أستاذ اللغة العربية بالثانوي التأهيلي، الصويرة -المغرب-

- حاصل على درجة الماجستير في النقد الأدبي من كلية الآداب بجامعة القاضي عياض مراكش بأطروحته: النموذج التأويلي التقابلي وانسجام الخطاب القرآني.
- حاصل على درجة الدكتوراه في النقد الأدبي من كلية الآداب بجامعة القاضي عياض مراكش بأطروحته: تلقي ألف ليلة وليلة في النقد المغاربي.

بعض النتاج العلمي:

- كتاب بعنوان «التقابلية منهجا لانسجام خطاب التأويل» ٢٠١٩.
- المشاركة في كتاب جماعي بعنوان أدب الرحلة؛ جدلية الأنا والآخر في عالم متغير، تقديم وتنسيق: الدكتور خالد التوزاني، طبعة ٢٠٢٠م.
- كتاب على مرمى حجر (أدب الرحلة)، دار السعيد للنشر، مصر، ٢٠٢٠.
- المشاركة في كتاب جماعي بعنوان «نحو بلاغة تأويلية جديدة، أبحاث محكمة في جهود الباحث الأكاديمي المغربي محمد بازي، تقديم وتنسيق الدكتور الحسين اخليفة، مطبعة قرطبة، أكادير، ط١، ٢٠١٩.
- شارك في العديد من الندوات الوطنية والدولية.

البريد الإلكتروني: molodarniba@gmail.com

مستخلص البحث

يُعنىٰ هذا البحث بدراسة: (الإعجاز الأسلوبي في تفسير أبي السعود، تفسير سورة آل عمران أنموذجا)، متوسّلا بالمنهج التحليلي – الوصفي.

وتتجلىٰ أهميّته في كشف نوع من أنواع إعجاز القرآن الكريم وهو الإعجاز الأسلوبي لما له من أهمية في تذوق المعاني القرآنية وتدبرها.

ويهدف البحث إلىٰ بيان أهمية المسلك الأسلوبي في تجلية المعاني القرآنية، وفي كشف أسرار نظم هذا الكتاب العجيب، باعتباره قابلا للدراسة وفق بعض المناهج الحديثة رافعا تحديه الإعجازي في وجه ما استجد من آليات في مجال تحليل الخطاب.

وقد جاء هذا البحث في مقدمة، ومدخل، وسبعة مباحث، وخاتمة:

فأما المقدمة فتضمنت التعريف بالموضوع، وأهدافه، ومنهجه، والدراسات السابقة فيه، وخطته.

وأما المدخل فخُصّص للتذكير بوجوه إعجاز القرآن، فالتعريف بالتفسير وصاحبه، ثم حديث عن الأسلوبية والأسلوب.

وجاءت المباحث على النحو الآتي:

الأول: التقديم والتأخير.

الثاني: التعريف والتنكير.

الثالث: الإظهار والإضمار.

الرابع: اختيار صيغة بدل أخرى.

الخامس: مادة الكلمة.

السادس: التكرار.

السابع: الالتفات.

وخلص البحث إلى بيان أهمية تفسير أبي السعود لما يزخر به من نكات بلاغية وأسلوبية في تذوق القرآن، وإلى تأكيد النظم الفريد لكتاب الله على مستوى أسلوبه؛ مؤكدين على أن المقولات الأسلوبية يمكن أن تكون مدخلا للاستدلال على إعجاز القرآن، وآلية من آليات تذوقه وتدبره.

ويوصي البحث بأهمية دراسة القرآن بما استجد في علوم اللسانيات وتحليل الخطاب شريطة مراعاة خصوصيته وسياقاته، والحفاظ على إسهامات التراث في هذا المجال.

الكلمات المفتاحية: الإعجاز، الأسلوبية، الإعجاز الأسلوبي، تأويل.

Stylistic Inimitability in the Tafsir of Abu Al Saud

"Tafsir of Surat Al-Imran as an Example"

Dr. Miloud Arnibah
,Professor of Arabic Language, Vocational Secondary Education
Essaouira, Morocco

Abstract

This research focuses on studying: (The stylistic inimitability in the Tafsir of Abu Al Saud, Tafsir of Surat Al-Imran as an example), following the analytical, descriptive approach.

It mainly highlights the stylistic inimitability which reflects the great meanings of the Holy Quran.

The research also sheds light on the significance of stylistic approach to explaining the Quranic meanings, as well as revealing the secrets of this miraculous book, given that it stands firm as a great miracle before the new analytical approaches of speech.

The research includes a foreword, an introduction, seven sections, and a conclusion:

The foreword includes presentation to the subject, as well as its objectives, methodology, previous studies, and plan.

The introduction shows the stylistic inimitability of the Holy

Quran, and includes presentation of the Tafsir and its author as well as his approach and methodology.

The sections are as follows:

First: Anastrophe

Second: Definite and Indefinite

Third: Incorporation and Ellipsis

Fourth: Substitution

Fifth: Origin of the Word

Sixth: Repetition

Seventh: Apostrophe

The research sheds light on the significance of the Tafsir of Abu Al Saud, given that it is full of rhetoric styles in the interpretation of the Holy Quran. In addition, it highlights the unique style of the Quran, while indicating that stylism is one of the contemplation approaches of the Quran and proves the inimitability of this sacred Book.

The research recommends studying the Quran in light of the latest developments in linguistics while taking into consideration its specificities and contexts and keeping the heritage contributions in this field.

Key words: Inimitability, Stylistic, Stylistic inimitability and interpretation

المقدمـــة

١- موضوع البحث وأهدافه:

يعالج هذا البحث موضوع الإعجاز الأسلوبي في تفسير أبي السعود، ويهدف إلىٰ الكشف عن أحد وجوه إعجاز الكتاب العزيز الذي لا تنقضي عجائبه، وهذا الوجه مرتبط أساسًا بالجانب اللغوي، باعتبار القرآن الكريم ظاهرة لغوية، تحدَّىٰ الله تعالىٰ بها قومًا برعوا في اللغة.

وننطلق من تفسير أبي السعود الذي أودعه صاحبه صورًا عديدة من هذا الإعجاز بشكل لافت، فكانت غايتنا هي أن نتتبع الصور التي توقَّف عندها الشيخ، وكيف أعمل فكره فيها متدبرًا ليقدم لها تأويلات خاصة، تدل علىٰ تميز هذا المفسر في هذا الجانب من جهة، ومن جهة أخرىٰ تكشف لنا جانبًا مهمًّا من الجوانب التي برع فيها الأسلوب القرآني وجعلها رافدًا من روافد إعجازه المتعددة؛ عملًا بالقاعدة التي تقول بأن أي تغيير في المبنىٰ يلازمه تغيير في المعنىٰ.

٢- دواعي البحث وإشكاليته:

وقفت عدة اعتبارات وراء اختياري لموضوع الجانب الأسلوبي في تفسير أبي السعود المسمىٰ «إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا الكتاب الكريم» من خلال سورة آل عمران أهمها:

- أن سورة آل عمران تتناسب مع طبيعة البحث والغلاف الحيزي، حتىٰ لا يكون طويلًا فيُمل، أو قصيرًا فيُخل.

- عناية أبي السعود الظاهرة بهذه اللفتات واللطائف التي تميز النص القرآني في تفسيره، وهي عناية ظاهرة وبيّنة تنم عن نية وقصد، واتجاه واضح في التفسير.

- محاولة اختبار علم الأسلوب ومعرفة مدىٰ جدواه في الدراسات القرآنية عامة، والتفسير علىٰ وجه الخصوص.

وينطلق البحث من إشكالية أساسية وهي: إلىٰ أي حد يُعتبر المسلك الأسلوبي ذا قيمة وجدوىٰ في كشف أسرار التنزيل واستخراج درره وعجائبه التي لا تنقضي من خلال ما جاء من لفتات في تفسير أبي السعود؟

وقد وضعنا بعض الفرضيات التي ستكون موضوع الاختبار في صفحات هذا العمل المتواضع، وهي:

- أن أبا السعود جاء بمنهج مخالف لمنهج النحاة واللغويين في التعامل مع ظاهرة خروج الأساليب القرآنية عن التراكيب النمطية، أو ما يسميه المعاصرون بـــ«الانزياح»(١).

- أن علم الأسلوب يمكن أن يكون مدخلًا لفهم النص القرآني وتأويله، ووسيلة لكشف الإعجاز الأسلوبي فيه.

---

(١) مفهوم الانزياح قد استعمل أول مرة في الدراسات الأسلوبية خاصة عند ريفاتير وبالي وسبيتزر، ولكن جون كوهن هو الذي أعطىٰ المفهوم بعدًا آخر وطوره حتىٰ ارتبط باسمه، وذلك في كتابه المشهور **بنية اللغة الشعرية**، الذي ترجمه محمد العمري ومحمد الولي، عن دار توبقال للنشر، الطبعة الأولىٰ، ١٩٨٦.

ويرد هذا المفهوم بمصطلحات أخرىٰ منها: التجاوز، الانحراف، الاختلال، الإحاطة، المخالفة، الانتهاك، خرق السنن، العصيان، اللحن، التحريف. ينظر: الأسلوبية والأسلوب، عبد السلام المسدي: (ص ١٠٠، ١٠١).

۞ ٣- الدراسات السابقة:

لقد شكل الإعجاز الأسلوبي اهتمام العديد من الباحثين في علم الأسلوب وفي الإعجاز القرآني؛ فنتج عن ذلك مجموعة من الدراسات، أغلبها ركزت علىٰ قضايا شبيهة بتلك التي يتناولها أبو السعود في تفسيره؛ أي أنها سعت إلىٰ البحث في أسرار الأسلوب القرآني عبر اختياراته، نافية عنه الخطأ.

ومن أبرز الدراسات التي توقفنا عندها كتاب بعنوان: «الإعجاز الأسلوبي والنحو»، لِعِزِّ الدين الذهبي، تناول هذا الكتاب الإعجاز الأسلوبي في القرآن الكريم بشكل علمي، معتمدًا التصور اللساني في معالجة قضاياه، **وبمنهج قائم علىٰ الفصل بين نظامين:**

الأول: نظام اللغة ويمثله النحاة، وأظهر في بنائهم للقواعد التكلف والتعقيد وعدم قدرتهم علىٰ فهم الانزياحات في النص القرآني، مما حال دون تلمسهم للعامل الجمالي والدلالي للنصوص، بسبب إسقاط نظام اللغة علىٰ نظام النص.

والثاني: نظام النص؛ الذي يمثله التصور الجديد المرتكز علىٰ أسلوبية الانزياح باعتماد المفاهيم اللسانية التي تمكن من تلمس بعض المعاني الجديدة في القرآن، وبيان بعض ما فيه من الانزياحات الدالة علىٰ إبداعيته ودلالته، وبالتالي إعجازه. ثم خلص الباحث إلىٰ أن الأسلوبية علم قادر علىٰ مقاربة النصوص -ومنها القرآن- أسلوبيًّا، وبيان ما وقع فيه النحاة من تكلف وأخطاء وعدم قدرة علىٰ كشف مغالق النصوص.

وهناك دراسة أخرىٰ، وهي عبارة عن مقالة للكاتب العراقي عبد الهادي خضير نيشان بعنوان «المغايرة الأسلوبية في القرآن، آراء وملاحظات»، والمقالة

منشورة في مجلة اللغة العربية بدمشق، المجلد ٨٦، الجزء الأول، ١٤٣٢هـ، توقف فيها الباحث عند بلاغة الأسلوب في الآيات المتشابهة، وقد أكد المبدأ الذي اتفق عليه العلماء منذ القديم، وهو أن أي تغيير في الآية المكررة عن سابقتها حتىٰ لو كان في حرف واحد لا بدَّ أن يكون وراءه فرق دلالي ينبغي طلبه وتلمسه. إلا أنه افترض وجود تفسير آخر لهذه المغايرة الأسلوبية، وهو مراعاة السياق الصوتي، أو هو البحث عن تلوين المغايرة الأسلوبية حتىٰ لا يكون التكرار تامًّا.

وقد اخترنا الاشتغال علىٰ تفسير أبي السعود لما لمسنا فيه من لفتات طريفة وعميقة، لا تنكشف إلا لرجل تقي ورع أدام النظر والتدبر في كتاب الله تعالىٰ؛ فكانت نتائج ذلك إشراقات ربانية، جلت صورة مهمة من صور إعجاز هذا الكتاب، وأظهرت غنىٰ اختياراته ونظمه الذي فاق نظم كل كلام وباينه.

٤- منهج البحث:

وأما عن المنهج المتبع في البحث، فهو منهج وصفي تحليلي؛ ذلك أننا نرصد الظاهرة الأسلوبية التي أشار إليها المفسر بشكل متكرر، فنعرفها انطلاقًا مما تداوله علماء القرآن الكريم والبلاغيين، ثم بعد ذلك نستحضر ما ذكره الشيخ بخصوص الآيات التي وردت فيها فنصفه ونحلله، وفي الأخير نعلق عليه بما فتح الله علينا من التأمل والتفكر.

٥- خطة البحث:

وفيما يتعلق بخطة البحث، فإننا قسمناه إلىٰ: **مقدمة** أبرزنا فيها موضوع البحث وأهدافه، ثم حددنا إشكاليته، ووضحنا خطته ومنهجه.

وأتبعناها **بمدخل**، ذكرنا فيه وجوه إعجاز القرآن الكريم التي تداولها العلماء والمفسرون، ثم عرفنا بأبي السعود، وتفسيره، لننتقل فيما بعد إلىٰ الحديث عن

الأسلوب والأسلوبية في اللغة ثم في الاصطلاح، ولا سيما عند الغربيين، وذلك بشكل مختصر. واستحضرنا بعض الدراسات التي تناولت موضوع الإعجاز الأسلوبي في القرآن الكريم.

وأما متن البحث فقد قسمناه إلى سبعة مباحث استخلصناها من خلال رصد الظواهر الأسلوبية الموجودة في سورة آل عمران، وهي على التوالي:

المبحث الأول: التقديم والتأخير

المبحث الثاني: التعريف والتنكير

المبحث الثالث: الإظهار والإضمار

المبحث الرابع: اختيار صيغة بدل أخرىٰ

المبحث الخامس: مادة الكلمة

المبحث السادس: التكرار

المبحث السابع: الالتفات.

ثم ختمنا البحث بمجموعة من الخلاصات والنتائج وتوصية.

ونشير إلىٰ أننا اشتغلنا بتفسير سورة آل عمران في الجزء الأول من التفسير من ص: ٤٣٠ إلىٰ ص٦٣٦. واكتفينا بتخريج الآيات؛ لأنها -في ظننا- تحيل مباشرة علىٰ أقوال أبي السعود بخصوصها، وذلك اجتنابًا لكثرة الإحالات.

والله نسأل أن يوفقنا ويفتح علينا ببعض ما فتح به علىٰ الشيخ الجليل أبي السعود في فتح مغاليق النص القرآني، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

مدخـــل

لقد أنزل الله تعالىٰ علىٰ خير رسله أفضل كتبه، وتحدّىٰ بإعجازه جميع خلقه، من إنسه وجنه، فقال لهم في أول الأمر: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، فلما لم يقدروا خفَّف من درجة التحدي قائلًا: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [هود: ١٣]، ثم لما عجزوا عن هذا أيضًا تحداهم بأقل من ذلك فقال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣].

ثم إن وجوه الإعجاز فيه كثيرة لا تحصىٰ ولا تعد[(١)]، بلغ فيها الدارسون

(١) ذكر ابن القيم الجوزية بعض صور إعجاز القرآن الكريم التي تداولها العلماء، ولعل أهمها ما اختاره القاضي عياض وجماعة وهي أربعة:

١- حسن تأليفه، والتئام كلمه وفصاحته ووجوه إيجازه، وبلاغته الخارقة عادات العرب.

٢- صور نظمه العجيب الأسلوب الغريب، المخالف لأساليب كلام العرب.

٣- ما انطوىٰ عليه من الإخبار بالمغيبات، وما لم يكن، ولم يقع فوجد كما أخبر.

٤- ما أتىٰ به من أخبار القرون السالفة والأمم البائدة والشرائع الداثرة. الفوائد المشوق إلىٰ علوم القرآن وعلم البيان، لابن القيم، (ص٣٨٦)، وهذا الكتاب دارت شكوك حول نسبته إلىٰ ابن القيم، وقد حسم الدكتور زكريا سعيد علي خطأ هذه النسبة وأكد في كتاب **مقدمة تفسير ابن النقيب في علم البيان والمعاني والبديع وإعجاز القرآن**، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، أن الكتاب مطبوع خطأ بعنوان الفوائد المشوق إلىٰ علوم القرآن وعلم البيان، لابن القيم الجوزية). =

والباحثون أقصىٰ الجهد، فلم يظفروا من درها إلا بالقليل، فوقفوا منبهرين أمام أسرار هذا التنزيل. فشجرته دائمة العطاء، لا يثنيها صيف ولا شتاء، وبستانه مرتع الفقهاء والعقلاء.

فكم من سورة من سوره الجامعات، وآية من آياته المحكمات أسجدت الجباه خلبًا، وخفقت لها القلوب عجبًا، فيه للعقل برهان وحجة، وللقلب جمال وطرفة، وللسان عذوبة ونغمة. كنوزه غالية ثمينة، وجواهره لامعة نفيسة، وعجائبه كثيرة لا تنقضي، وعطاؤه دائم أبدي، مَن احتج به أقنع، ومَن تغنَّىٰ بكلماته أخشع وأمتع، ومن درس خطوطه تفنن وأبدع.

ومن وجوه إعجازه التي سالت فيها بحار من المداد، وتنافس فيها العلماء

= **وذكر الزركشي اثنتي عشرة صورة لإعجازه، وهي:**

١- إن الله صرف العرب عن معارضته وسلب عقولهم.

٢- التأليف الخاص به، لا مطلق التأليف.

٣- ما فيه من الإخبار عن الغيوب المستقبلية.

٤- ما تضمن من إخبار عن قصص الأولين وسائر المتقدمين.

٥- إخباره عن الضمائر من غير أن يظهر ذلك منهم بقول أو فعل.

٦- نظمه وصحة معانيه، وتوالي فصاحة ألفاظه.

٧- الفصاحة وغرابة الأسلوب، والسلامة من جميع العيوب.

٨- النظم والتأليف والترصيف.

٩- أنه شيء لا يمكن التعبير عنه.

١٠- استمرار الفصاحة والبلاغة فيه من جميع أنحائها.

١١- من جهة البلاغة.

١٢- بجميع ما وقع من الأقوال. (البرهان في علوم القرآن، للزركشي (٢/ ٣٢٣-٣٦٩).

والأفذاذ، فملأوا في ذلك الأسفار بالدرر والجواهر، وجاءوا فيها بالعجائب والبواهر: الإعجاز الأسلوبي.

ومن العلماء الأجلاء، خُدَّام الكتاب الأوفياء، الذين عنوا بذلك فجلوه خير جلاء، القاضي أبو السعود، صاحب كتابه المحمود، الذي سماه «إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا الكتاب الكريم»، وهو كتاب مشهور بين كتب التفسير المنثور، كثير الفوائد، شهي الموائد؛ فمَن يكون هذا العَلَم؟

١- ترجمة أبي السعود[(١)]:

هو شيخ الإسلام ومفتي الأنام المولىٰ؛ أبو السعود بن محمد العمادي، المتوفىٰ سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة، ولد بقرية قريبة من قسطنطينية، وقرأ علىٰ والده كثيرًا؛ من جملة ما قرأ عليه حاشية التجريد للشريف الجرجاني، وشرح المفتاح للشريف أيضًا قرأه عليه مرتين، وشرح المواقف له أيضًا، وسار ملازمًا من المولىٰ سعدي جلبي وتنقل في المدارس، ثم قلد قضاء برسة، ثم قضاء قسطنطينية، ثم قضاء العسكر ودام عليه مدة ثماني سنين، ثم لما توفي المولىٰ سعد الله بن عيسىٰ بن أمير خان تولىٰ مكانه الفتيا فقام بأعبائها أتم قيام، وذلك سنة اثنتين وخمسين وتسعمائة، واستمر علىٰ ذلك إلىٰ أن مات.

سارت أجوبته في جميع العلوم وجميع الآفاق مسير النجوم، وكان من الذين قعدوا من الفضائل والمعارف علىٰ سنامها وغاربها، وضربت له نوبة الامتياز في مشارق الأرض ومغاربها. تفرد في ميدان فضله فلم يجاره أحد، وانقطع عن

(١) اعتمدنا في ذلك علىٰ كتابين هما: شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي، (٨/ ٣٩٨-٤٠٠). وكشف الظنون لحاجي خليفة، المجلد الثاني، (ص ٦٥-٦٦).

القرين والمماثل في كل بلد.

عاقه الدرس والفتوىٰ والاشتغال بما هو أهم وأقوىٰ عن التفرغ للتصنيف؛ سوىٰ أنه اختلس فرصًا وصرفها إلىٰ التفسير الشريف، وقد أتىٰ بما لم تسمع به الأذهان، ولم تقرع بمثله الآذان، وسماه بإرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا الكتاب الكريم. ولما بلغ تسويده سورة ص وطال العهد بيضه في شعبان سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة وأرسله إلىٰ السلطان سليمان خان، فاشتهر صيته وانتشرت نسخه في الأقطار، ووقع التلقي بالقبول من الفحول والكبار؛ لحسن سبكه ولطف تعبيره، فصار يقال له: خطيب المفسرين.

كان طويل القامة، خفيف العارضين، غير متكلف في الطعام واللباس؛ غير أن فيه نوع اكتراث بمداراة الناس والميل الزائد إلىٰ أرباب الرياسة، فكان ذا مهابة عظيمة، واسع التقرير، سائغ التحرير.

له شعر كثير مطبوع؛ منه قصيدته الميمية الطويلة التي أولها:

أبعد سليمىٰ مطلب ومرام ... وغير هواها لوعة وغرام

وفوق حماها ملجأ ومثابة ... ودون ذراها موقف ومقام

من مصنفاته[1]:

- بضاعة القاضي في الصكوك[2]: رسالة ألفها ليبين للقضاة الأصول والقواعد التي ينبغي عليهم مراعاتها في عملهم.

(١) ينظر: كشف الظنون، لحاجي خليفة، المجلد الثاني، (ص ٦٥- ٦٦).

(٢) كشف الظنون، لحاجي خليفة، (١/ ٢٤٧).

- تحفة الطلاب في المناظرة[١]: منظومة في اثنين وخمسين بيتًا من الرجز.

- تواقف الأنظار في أوائل منار الأنوار[٢].

- حسم الخلاف في المسح علىٰ الخفاف[٣]: رسالة مخطوطة يتضح من عنوانها أنها في الفقه وتتعلق بأحكام المسح علىٰ الخفين.

- الفتاوىٰ[٤]: مجموعة فتاوىٰ أبي السعود، جمعها بعض العلماء والطلاب.

۞ ٢- بين يدي التفسير:

الكتاب الذي نشتغل عليه هو التفسير المعنون بـ«تفسير أبي السعود، أو إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا الكتاب الكريم» لقاضي القضاة أبي السعود بن محمد العمادي الحنفي (٩٠٠هـ-٩٨٢هـ)، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، من منشورات مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، بدون تاريخ.

يقع التفسير في خمسة أجزاء؛ يضم الجزء الأول مقدمة المحقق، وفيها ترجمة الشيخ أبي السعود، والتعريف بكتابه ومصادره، وأيضًا شرح لخطة المحقق، ثم ديباجة المؤلف وتفسير سور: الفاتحة، والبقرة، وآل عمران، والنساء. أما الجزء الثاني فيحتوي علىٰ تفسير السور من المائدة إلىٰ آخر سورة يونس، والجزء الثالث يبتدئ بسورة هود وينتهي بآخر سورة الأنبياء. ويبدأ الجزء الرابع بتفسير سورة

(١) تاريخ الأدب العربي، لبروكلمان، (٩/ ٣٦٤).

(٢) كشف الظنون، لحاجي خليفة، (٢/ ١٨٢٦).

(٣) نفسه، (١/ ٧٥٥).

(٤) نفسه، (٢/ ١٢١٩).

الحج ويختتم بتفسير آخر سورة الزمر، وأما الجزء الخامس والأخير فيبدأ بسورة غافر التي سماها المفسر سورة المؤمن، وينتهي بآخر سورة الناس.

وقبل أن نخوض في الموضوع لا بد أن نعرج علىٰ معنىٰ الأسلوب والأسلوبية في وقفة مختصرة.

۞ ٣- الأسلوب والأسلوبية:

جاء في اللسان أن الأسلوب «يقال للسطر من النخل، وكل طريق ممتد فهو أسلوب، وهو الطريق والوجه، والمذهب، يقال: أخذ فلان في أساليب القول، أي في أفانين القول»(١).

أما في الثقافة الغربية «فكلمة style مأخوذة من stylos التي تعني قضيبًا من الحديد كان القدماء يكتبون به علىٰ ألواح الشمع»(٢).

أما المعنىٰ المتداول في الحياة، فيدور حول طريقة التصرف وهو قديم جدًّا، وهناك معنىٰ أكثر تخصيصًا يتم تداوله بين عموم المتعلمين؛ وهو أن «الأسلوب هو وسيلة التعبير عن الفكرة بواسطة الكلمات والتركيبات»(٣)، وبمعنىٰ آخر هو «طريقة في الكتابة»(٤).

وفي الجانب الاصطلاحي لا نكاد نعثر علىٰ تعريف جامع، وإنما مجموعة من التعريفات المختلفة، ورغم اختلافها فإنها تجمع علىٰ مسألة «خصوصية التعبير،

(١) لسان العرب، لابن منظور، مادة (سلب)، (ص٢٠٨٥).

(٢) اللغة والإبداع مبادئ علم الأسلوب العربي، شكري محمد عياد، (ص٢٢)

(٣) معجم المصطلحات الأدبية، سعيد علوش، (ص١١٤).

(٤) الأسلوبية، بيير جيرو، (ص٩).

وتفرده»، ولكنهم اختلفوا أيضًا في تحديد مصدر هذه الخصوصية، فتفرقوا في ذلك اتجاهات ومذاهب؛ فمنهم من جعلها عند وسط معين (أطباء، حرفيين...)، وهناك من جعلها في عصر معين، وهناك من درسها عند كاتب معين، ومنهم من تتبعها في لغة معينة، ثم هناك من قاربها في نص معين؛ لأنهم اعتبروا دراستها عند كاتب معين تندرج ضمن مجال اللسانيات.

ويبدو أنه من الصعب العثور على تعريف موحد لـ«الأسلوب» يحدد دلالته تحديدًا دقيقًا؛ وسبب ذلك أن «هذه الكلمة لا تخص المجال اللساني وحده، بل استعملت في مجالات أخرى عديدة من مجالات الحياة اليومية والفن»(١). وقد تعددت التعاريف بشكل لافت، إلى درجة أن صلاح فضل قد أحصى حوالي ثلاثين تعريفًا(٢).

لكن هل يمكن أن نقول بأن الأسلوب وُجد في الثقافة العربية القديمة؟

الجواب: هو نعم، ولكنه وجود لغوي، أما المعنى الاصطلاحي ففيه شك. لقد ورد عند عبد القاهر (ت٤٧١هـ) مرتبطًا بالنظم، وذكره- أيضًا- ابن خلدون (ت٨٠٨هـ) في فصل صناعة الشعر ووجه تعلمه فقال: «فاعلم أنها عبارة عنده على المنوال الذي تنسج فيه التراكيب، أو القالب الذي يفرغ فيه، ولا يرجع إلى الكلام باعتبار إفادته كمال المعنى الذي هو وظيفة الإعراب، ولا باعتبار إفادته أصل المعنى من خواص التراكيب، الذي هو وظيفة البلاغة والبيان»(٣).

(١) البلاغة والأسلوبية نحو نموذج سيميائي لتحليل النص، لهنريش بليت، (ص٥١).

(٢) علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، د.صلاح فضل، (ص٩١ وما بعدها).

(٣) المقدمة، لابن خلدون، (٢/ ٣٩٧)

وأما الأسلوبية -أو علم الأسلوب- فهي علم وليد القرن العشرين، وتتفق مع الأسلوب الذي يعتبر مهدًا طبيعيًّا لها في «كونهما يقومان علىٰ مبدأ الانتقاء والاختيار للمادة الأدائية والتي تتكفل الأسلوبية بدراستها»(١)، وقد اعتبرت «علمًا لسانيًّا نقديًّا»(٢) كما عند الألماني س. أولمان. أما بيير جيرو فيرىٰ بأن الأسلوبية «دراسة للتعبير اللساني»(٣). وفي المدرسة الفرنسية هي «دراسة طريقة التعبير عن الفكر من خلال اللغة»(٤). وقد عرَّف شارل بالي الأسلوبية أو علم الأسلوب بأنه «العلم الذي يدرس عناصر اللغة المنظمة، من وجهة نظر محتواها التعبيري والتأثيري»(٥)، وهي عند جاكبسون «بحث عما يتميز به الكلام الفني عن بقية مستويات الخطاب أولًا وعن سائر أصناف الفنون الإنسانية ثانيًا»(٦).

ويكاد الباحثون يتفقون علىٰ أن الفضل في ظهور الأسلوبية الغربية الحديثة يعود إلىٰ الفرنسي شارل بالي سنة ١٩٠٢(٧)، من خلال كتابه الموسوم بـ«بحث في علم الأسلوب الفرنسي»، وقد عرَّف الأسلوبية في موضع آخر بأنها «علم يعنىٰ بدراسة وقائع التعبير في اللغة المشحونة بالعاطفة المعبرة عن الحساسية»(٨)، ثم

(١) البحث الأسلوبي معاصرة وتراث، لرجاء عيد، (ص٢١).

(٢) الأسلوبية والأسلوب، عبد السلام المسدي، (ص٢٤).

(٣) الأسلوبية، بيير جيرو، (ص١٠).

(٤) علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، د.صلاح فضل، (ص١٣٤).

(٥) نفسه، (ص٩٨).

(٦) الأسلوبية والأسلوب، عبد السلام المسدي، (ص٣٧).

(٧) نفسه، (ص٢٠).

(٨) في الأسلوبية والأسلوب، محمد اللويمي، (ص٤٢).

أُعلن عن اكتمالها علمًا لسانيًّا نقديًّا سنة ١٩٦٩م على يد الألماني س. أولمان(١).

وما قيل حول تعريف الأسلوب بخصوص كثرة التعريفات يسري- في جزء منه- على الأسلوبية أو علم الأسلوب؛ **وعمومًا فإن هذه التعريفات كلها يمكن ردها إلى ثلاثة اعتبارات(٢)، وهي:**

أولًا: باعتبار المرسل أو المخاطب (التعبير الكاشف لنمط التفكير عند صاحبه: الأسلوب هو الرجل).

ثانيًا: باعتبار المتلقي والمخاطب (سمات النص التي تترك أثرها على المتلقي أيًّا كان هذا الأثر).

ثالثًا: باعتبار الخطاب (مجموعة الظواهر اللغوية المختارة الموظفة المشكلة عدولًا، وما يتصل به من إيحاءات ودلالات).

لذلك يمكن الحديث عن اتجاهات في الأسلوبية(٣)، تختلف باختلاف المنطلقات ووجهات النظر، ومنها اتجاهان كبيران، وهما: الأسلوبية اللسانية التي تسعى إلى تكوين علم أصوات ونحو ومعجم للمسالك الأسلوبية، وذلك بجمع أصناف المسالك الأسلوبية من النصوص، وهي تتميز باهتمامها «البحثي والتحليلي

(١) الأسلوبية والأسلوب، عبد السلام المسدي، (ص٢٤).

(٢) ينظر الأسلوبية والأسلوب، عبد السلام المسدي، (ص ٥٧-١٠٦).

(٣) يقدم هنريش بليت تصنيفًا لاتجاهات الأسلوبيات، فيذكر منها: الاتجاه التعبيري، والاتجاه المحاكاتي، والاتجاه التأثيري، والاتجاه التأليفي، وأسلوبية السجلات، والأسلوبية السيميائية، وأسلوبية السياق، وأسلوبية الانزياح، وأسلوبية الإحصاء. (ينظر: هنريش بليت: البلاغة والأسلوبية نحو نموذج سيميائي لتحليل النص، (مقدمة المترجم)، (ص١٣).

والوصفي بالأسلوب أخذًا بمناهج وأسس لسانية تدخلها في دائرة البحث اللساني والنظري»[(١)]. والأسلوبية الأدبية التي تعتبر خصوصية الحدث الأسلوبي وطابعه الفردي، وتنكر أي إمكانية لوضع المسالك الأسلوبية في أصناف، ولا يمكن دراستها إلا بالانطلاق من النص، أي أنها «ترمي إلىٰ الخطاب أو نقل الرسالة وإفهام المتلقي وتمييز الظواهر الأسلوبية بخصائص وصفات وسمات إشارية محددة مستعينة بالأسلوبية اللسانية»[(٢)]. واندرجت تحت كل اتجاه اتجاهات أخرىٰ.

٤- بين البلاغة والأسلوبية:

تثير العلاقة بين الأسلوبية والبلاغة مجموعة من الإشكالات والتساؤلات؛ فهل البلاغة هي مهد الأسلوبية؟ أم أن الأسلوبية علم حديث النشأة لا علاقة له بالبلاغة؟ وهل فعلًا أصبحت البلاغة عاجزة عن تحليل النصوص لتترك المجال للأسلوبية بديلًا لها قادرًا علىٰ هذا التحليل؟ وما حدود العلاقة بين الطرفين؟

يرىٰ بعض الباحثين الغربيين أن العلاقة بين البلاغة الغربية القديمة والأسلوبية الحديثة هي علاقة خلف بسلف، فأغلبهم يقرّون بأن الأسلوبية هي العلم الحديث البديل عن البلاغة بمفهومها التقليدي، فعندما «شب علم الأسلوب أصبح هو البلاغة الجديدة في دورها المزدوج، كعلم للتعبير ونقد للأساليب»[(٣)]، وهذا ما ذهب إلىٰ مثله بيير جيرو الذي يقول: «إن الأسلوبية بلاغة حديثة ذات شكل مضاعف»[(٤)]،

(١) «الأسلوبية اللسانية»، ولريش بيوشل، (ص١١٢).

(٢) نفسه، (ص١١٣).

(٣) علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، د.صلاح فضل، (ص١٧٥).

(٤) الأسلوبية، بيير جيرو، (ص٩).

مما يعني أن بين الطرفين علاقة تداخل، وكأن البلاغة هي الأب، والأسلوبية هي الوريثة الشرعية للبلاغة القديمة(١)، وهو نفس ما رآه بول كولان إذ ذهب إلىٰ أن «الأسلوبية وليدة البلاغة ووريثها المباشر»(٢). وهناك من رأىٰ بأن الأسلوبية هي بعث جديد للبلاغة؛ ذلك أن البلاغة الغربية ماتت في نهاية القرن التاسع، و«لكنها ما لبثت أن بُعثت من جديد تحت اسم «علم الأسلوب»»(٣).

وعملًا بمبدأ رفض القطائع الإبستيمولوجية، والأخذ بنظرية تطور العلوم وارتباطها ببعضها، فإن الأسلوبية باعتبارها علمًا حديثًا «حاولت تجنب المزالق التي وقعت فيها البلاغة القديمة من حيث إغراقها في الشكلية، ومن حيث اقتصارها علىٰ الدراسة الجزئية التي تتناول اللفظة المفردة، ثم الصعود إلىٰ الجملة الواحدة أو ما هو في حكم الجملة الواحدة»(٤)، ولا يعني ذلك أن بين الطرفين قطيعة تامة كما أشرنا، ولكن العلاقة بينهما ظلت منذ زمن وطيدة إلىٰ حد يصعب معه التمييز بين اختصاصات كل منهما، وقد عبر هنريش بليت عن طبيعة هذه العلاقة المتداخلة بقوله: «تتقلص الأسلوبية أحيانًا حتىٰ لا تعدو أن تكون جزءًا من نموذج التواصل البلاغي، وتنفصل أحيانًا عن هذا النموذج وتتسع حتىٰ لتكاد تمثل البلاغة كلها باعتبارها بلاغة مختزلة»(٥). وهذا التداخل نجده عند أول غربي استعمل مصطلح الأسلوبية، وهو نوفاليس، فهي عنده «تختلط مع البلاغة»(٦).

(١) البلاغة والأسلوبية، د.محمد عبد المطلب، (ص٢٥٩).

(٢) الأسلوبية والأسلوب، عبد السلام المسدي، (ص٥٢).

(٣) نظرية البنائية في النقد الأدبي، د.صلاح فضل، (ص٣٦٥).

(٤) البلاغة والأسلوبية، د.حمد عبد المطلب، (ص٣٥٢).

(٥) البلاغة والأسلوبية نحو نموذج سيميائي لتحليل النص، لهنريش بليت، (ص١٩).

(٦) الأسلوبية، بيير جيرو، (ص٩).

أما عند العرب فقد تباينت آراء الدارسين حول طبيعة هذه العلاقة؛ فمنهم من رأىٰ بأن الأسلوبية والبلاغة ترتبطان ارتباطًا وثيقًا، واعتبر بعضهم أن الأسلوبية ليست علمًا غربيًّا حديث النشأة كليًّا، ولكن لها جذورها في البلاغة العربية القديمة، ومنهم عبد المنعم خفاجي ومحمد السعدي فرهود وعبد العزيز شرف الذين اعتبروا عبد القاهر الجرجاني رائد الأسلوبية في البيان العربي(١).

وما ذهب إليه شكري عياد شبيه بهذا التوجه؛ إذ اعتبر أن «علم الأسلوب ذو نسب عريق عندنا؛ لأن أصوله ترجع إلىٰ علوم البلاغة، وثقافتنا العربية تزدهي بتراث غني في علوم البلاغة»(٢).

ويُعتبر كتاب «الأسلوب» لأحمد الشايب محاولة مبكرة لدمج البلاغة بالأسلوبية في تجديد البلاغة العربية، فقد أعلن الكاتب في التقديم عن تطبيق منهج جديد يضع البلاغة العربية وضعًا جديدًا يلائم ما انتهت إليه الحركة الأدبية في ناحيتها العلمية والإنشائية.

ويدرج البلاغة العربية في بابين أولهما: باب الأسلوب، ويدخل ضمنه موضوعات: المعاني والبيان والبديع، لا علىٰ أنها علوم مستقلة، بل علىٰ أنها فصول في باب الأسلوب تناول بحوثها كما يتناول غيرها(٣).

والدارسون الذين أكدوا علىٰ العلاقة بين البلاغة العربية والأسلوبية الحديثة كثيرون، ذكر منهم محمد كريم الكواز(٤): تمام حسان، أحمد مطلوب، لطفي

(١) الأسلوبية والبيان العربي، د.محمد عبد المنعم خفاجي وآخران، (ص١٥١ وما بعدها)

(٢) مدخل إلىٰ علم الأسلوب، د.شكري عياد، (ص٧).

(٣) الأسلوب، دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية، لأحمد الشايب، (ص٣).

(٤) الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، محمد كريم الكواز، (ص١١٢ وما بعدها).

البديع، حمادي صمود، عبد الحكيم راضي.

ورأى الكواز بأن أوجه التلاقي بين البلاغة والأسلوبية تمت على مستوى مفهومي العدول والمقارنة الأسلوبية.

وهناك من اعتبر أن الأسلوبية تختلف اختلافًا بينًا عن البلاغة العربية القديمة، ونفى الصلة بينهما، ومنهم صلاح فضل الذي يقول بصريح العبارة: «فمن السذاجة بمكان أن نتصور علمًا ناضجًا في غير عصره؛ لأن هذا يؤدي إلى خلل في بنية الثقافة الإنسانية»(١).

وهناك فئة ثالثة تقف موقفًا وسطًا، فهي ترى بأن ثمة مواضع تتفق فيها الأسلوبية والبلاغة، وهناك مواضع أخرى تختلفان فيها، ومن هؤلاء محمد كريم الكواز الذي، وإن كان يميل إلى فصل البلاغة عن الأسلوبية، فإنه يقر بأمور بدت لنا وجيهة، فأجملناها كما يأتي(٢):

- اختلاف البلاغة عن الأسلوبية في مستوى من مستويات الإعجاز البلاغي القرآني لا يعني القطيعة التامة؛ ولكن يعني أن التطابق بين بعض المقولات قد يحصل بين بلاغة القرآن والأسلوبية.
- إمكانية الاستفادة من الأسلوبية في الكشف عن بلاغة القرآن من حيث المنهج، مع مراعاة خصوصية مستوى الإعجاز.
- الحاجة إلى تنمية آراء بعض العلماء العرب وتوضيحها بما يجعل الإفادة من الأسلوبية في المستقبل مدخلًا واسعًا إلى الإعجاز البلاغي.

(١) علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، د.صلاح فضل، (ص١٨٤).

(٢) الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، محمد كريم الكواز، (ص ١٤٣- ١٤٤).

- التمييز بين بلاغة أرسطو التي ورثتها الحضارة الغربية فأقامت علىٰ أنقاضها الأسلوبية، وبلاغة العرب التي ترعرعت في ظل القرآن الكريم.

والذي نميل إليه هو أن الصلة ثابتة بين البلاغة العربية القديمة والأسلوبية؛ لكننا لا ندعي تعصبًا أن الأسلوبية علم عربي النشأة، ولكن من الجائز أن بعض مبادئ هذا العلم قد وُجدت عند البلاغيين القدامىٰ ولكن باعتبارها مفاهيم ذهنية متداولة، أما القول بأن الأسلوبية وُجدت بالتصور الغربي الحديث في التراث البلاغي العربي فلا يمكن أن يقول بمثله عاقل.

ولكن الذي لا شك فيه هو أن عددًا لا بأس به من مباحث البلاغة العربية يمكن تناوله تناولًا جديدًا في إطار الأسلوبية الحديثة؛ فعلىٰ سبيل المثال ما تناوله عبد القاهر الجرجاني من تقديم وتأخير، وذكر وحذف، وتعريف وتنكير، وغير ذلك من وجوه البيان والبديع كان «تحديدًا قريبًا من مفهوم الأسلوبية في المذاهب الغربية الحديثة»(١).

وهذا ما أكده محمد عبد المطلب الذي أبرز العلاقة بين المباحث البلاغية والأسلوبية بقوله: «وإذا كان علم المعاني يتصل بدراسة الأسلوب من حيث ما يعرض للجملة، فإن علم البيان يتصل بها من حيث ما يعرض للمفرد»(٢).

وعمومًا فإن الأسلوب يسمح بتناول القضايا البلاغية تناولًا حديثًا ما دام أنه «خروج علىٰ المعيار أو المألوف، أو اختراق للمثالية، والمثالية تكون في الأداء العادي للغة، وأما «الاختراق» أو ما يسمىٰ «خرق السنن» فإنما يكون في المستوىٰ الإبداعي لها»(٣).

(١) الأسلوبية والبيان العربي، د.محمد عبد المنعم خفاجي وآخران، (ص٥).

(٢) البلاغة والأسلوبية، د.محمد عبد المطلب، (ص ٢٦٣- ٢٦٤).

(٣) نفسه، (ص٢٨٦).

وبناء على ما تقدم بدا لنا أن تناولنا لبعض المباحث البلاغية في تفسير أبي السعود من مدخل أسلوبي أمر مسوغ ومشروع، بغية أن نكشف عن تميّز الأسلوب القرآني في اختياراته الأسلوبية وربط ذلك بالدلالة ومقصدية المتكلم الذي هو الحق سبحانه من جهة، وحال المخاطبين من جهة ثانية، ثم طبيعة الخطاب القرآني في سياق معين من جهة ثالثة؛ للوقوف على بعض صور إعجازه التي لا تنقضي.

المبحث الأول

التقديم والتأخير

التقديم والتأخير من الأبواب التي أحيطت بعناية كبيرة من لدن الشيخ أبي السعود، وأتىٰ فيها بلطائف عديدة، وطرائف فريدة، ولا عجب في ذلك فإمام النحاة عبد القاهر احتفىٰ بهذا الباب أيما احتفاء، واعتبره من أهم مظاهر نظرية النظم التي أرسىٰ أسسها في كتابه «دلائل الإعجاز».

يقول إمام النحاة عن أهمية هذا الباب: «هو بابٌ جَمُّ المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفتر لك عن بديعة، ويُفضي بك إلىٰ لطيفة»(١).

ويجعله مدخلا أساسًا لتذوق النصوص ووسيلة من الوسائل الفعالة لكشف جماليتها، من خلال تلمس مواقع التقديم، فإذا نظرت في شعر فراقك سماعه، ولذَّ عندك، وأردت أن تعلم الجهة التي منها جاء إعجابك به «فتجد سبب أن راقك ولطف عندك أن قدم فيه شيء وحول اللفظ من مكانٍ إلىٰ مكانٍ»(٢).

فالمعاني تتحدد تبعًا لطريقة ترتيب الألفاظ، وهو أحد التعريفات التي قدمها عبد القاهر لمفهوم المزية، فهي «تقع في اللفظ مرتبًا علىٰ المعاني المرتبة في النفس»(٣).

(١) دلائل الإعجاز، للجرجاني عبد القاهر، (ص١١٠).

(٢) نفسه، (ص١١٠).

(٣) نفسه، (ص١٢٣).

ولما كانت هذه هي أهمية التقديم والتأخير، فإن أبا السعود له وقفات مع هذه الظاهرة في كتاب الله يكشف أسرار التنزيل التي تهتز لها النفوس إعجابا؛ يقول في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران: ٥] «وتقديم الأرض علىٰ السماء؛ لإظهار الاعتناء بشأن أحوال أهلها، وتوسيط حرف النفي بينهما للدلالة علىٰ الترقي من الأدنىٰ إلىٰ الأعلىٰ باعتبار القرب والبعد من المستدعين للتفاوت بالنسبة إلىٰ علومنا»(١).

فهذه قراءة تأويلية تستند إلىٰ وقفة تفكرية متأنية لا تتأتىٰ لزيد أو عمرو من الناس أيًّا كانا، ولكنها تحتاج لآحاد من الناس له دربة ودراية باللغة والتنزيل علىٰ حد سواء.

وليس الاعتناء وحده هو سبب التقديم، بل هناك أسباب أخرىٰ من مثال ما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣]، فسبب تقديم السجود علىٰ الركوع يرجعه المفسر إلىٰ أحد احتمالين: فإما أن السجود في شريعتهم قبل الركوع، وإما لكون السجود أفضل أركان الصلاة، وأقصىٰ مراتب الخضوع، ولا غرو في ذلك فالنبي ﷺ يخبرنا في الحديث قائلًا «**أقربُ ما يَكونُ العبْدُ مِن ربِّهِ وَهو ساجدٌ؛ فَأَكثِرُوا الدُّعاءَ**»(٢).

ومن خلال المثال السابق يتضح أن الرجل لا يكتفي بإيراد وجه واحد لتأويل التقديم والتأخير، وإنما يعطي أحيانًا أكثر من وجه، كما هو الشأن في تعامله مع قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ

(١) تفسير أبي السعود، لأبي السعود، (١/ ٤٣٧).

(٢) صحيح مسلم، لمسلم، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم (٤٨٢).

هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٠] إذ يرىٰ بأن السر في تقديم الأموال وتأخير الأولاد يرجع لأحد سببين:

- ✓ **الأول:** لعراقة الأولاد في كشف الكروب.
- ✓ **والثاني:** لأن الأموال أول عدة يفزع إليها عند نزول الخطوب.

وقد يأتي أحيانًا التقديم والتأخير لغاية جمالية تتعلق بالإيقاع؛ ففي قوله تعالىٰ: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٩٢] يرىٰ بأن تقديم الجار والمجرور لرعاية الفواصل، فالآية التي قبلها هي: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٩١] لم يوضح أبو السعود هنا قضية مراعاة الفواصل، ولكن الظاهر -والله أعلم- أنه قصد بتوافق الفواصل ما بين «أَلِيمٌ» باعتبار الوقف و«عَلِيمٌ»، ويشهد لذلك أن هذه الفاصلة وردت في آية سابقة هي: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٨٩]، ولذلك جاءت كلمة «عَلِيمٌ» في نهاية الفاصلة الثانية لأنها توافق «رحِيمٌ» و«أَلِيمٌ»، أما كلمة «به»، فلا تسمح بهذه الإمكانية.

وقد عبر عن ذلك أحيانًا بالحفاظ علىٰ رءوس الآي، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٧]. فالآية التي قبلها تنتهي بقوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

ومن أسرار التقديم أيضًا يذكر الشيخ القصر، ففي قوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾، فالجار والمجرور قدم هنا ليفيد أن كل

ما في السماوات وما في الأرض مقتصر ملكه على الله تعالىٰ لا ينازعه في ملكه أحد أيًّا كان. والشيء نفسه في قوله تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢].

وإذا كان سيبويه (ت ١٨٠هـ) قد سطر قاعدة لهذا الباب، فجعل التقديم للعناية والاهتمام فقط، فرأىٰ بأن العرب «إنما يقدمون الذي بيانه أهم لهم، وهم ببيانه أعنىٰ وإن كانا جميعًا يهمانهم ويعنيانهم»(١)، فإن أبا السعود يرىٰ بأن كلًّا من المقدم والمؤخر يحتلان نفس المرتبة من حيث الاعتناء، ويربط ذلك بالمتلقي، فالأول مقدم للعناية والثاني مؤخر للتشويق إليه.

يقول: «فإن ما حقه التقديم إذا تأخر تبقىٰ النفس مترقبة لوروده لا سيما عند الإشعار بكونه من المنافع»(٢). والأمثلة علىٰ ذلك موجودة: منها تأخير المفعول الصريح عن الجار والمجرور في قوله تعالىٰ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨]. وفي موضع آخر نجد أبا السعود يربط قضية التقديم والتأخير بمطابقة كلام الله لواقع الكون وأسرار انتظامه، ففي قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] يرىٰ بأن تقديم الليل علىٰ النهار إما لأنه الأصل فإن غرر الشهور تظهر في الليالي، وإما لتقدمه في الخلقية حسبما ينبئ عنه قوله تعالىٰ: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ﴾ [يس: ٣٦].

❁ ❁ ❁

(١) الكتاب، لسيبويه، (١/ ٣٤).

(٢) تفسير أبي السعود، لأبي السعود،(١/ ٤٤١).

المبحث الثاني

التعريف والتنكير

ليس من الممكن أن تكون استعمالات القرآن الكريم عمومًا -ومنها استعمال الكلمة تارة معرفة وأخرىٰ منكرة- من قبيل العبث والصدف، ولكن لكل استعمال أسراره وخباياه، ولطائفه ودقائقه المتعلقة بسياق القول الذي ورد فيه هذا اللفظ. وأبو السعود من المفسرين الذين عنوا بالتنكير كثيرًا ووقفوا عند دلالاته معتمدًا في ذلك علىٰ إعمال فكره ورويته؛ عملًا بمطلب التدبر الذي أمرنا به في تعاملنا مع كتاب الله تعالىٰ.

وتتعدد هذه الدلالات بتعدد سياقات القول كما أشرنا؛ ففي قوله تعالىٰ: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٢] يرىٰ بأن تنكير لفظ «غضب» في هذا الموضع له دلالتان: الأولىٰ تفيد التفخيم، والثانية تفيد التهويل، وهذا يتناسب والحديث عن طائفة الفاسقين من أهل الكتاب، فقد ضربت عليهم الذلة، ورجعوا بما رجعوا به من غضب الله، وغضب الله من أشد أنواع العذاب؛ إذ قرنه الله تعالىٰ بلعنته في سورة النساء في سياق الحديث عن ارتكاب كبيرة من الكبائر الخطيرة، وهي قتل النفس المؤمنة إذ يقول: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

وتكاد علة التفخيم تطرد في تفسير أبي السعود، فهو يقول في معرض تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٤] بأن تنكير كلمة «فضل» للتفخيم.

وهناك سر آخر من أسرار التنكير يكشفه لنا أبو السعود في تنكير لفظة «غم» في قول الله ﷻ: ﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ﴾ [آل عمران: ١٥٣] فيقول بأن التنكير هنا له دلالة التكثير، وهذا أيضًا يتناسب مع سياق القول، فالحديث هنا عن المؤمنين الذين خالفوا أمر رسول الله في غزوة أُحد، وأي غم أعظم من غم القتل والجرح وظفر المشركين والإرجاف بقتل رسول الله ﷺ، وفوات الغنيمة.

ولا يكاد سر التنكير ينكشف لأبي السعود في بعض المواضع إلا بعد ربطه بموقعه في النظم القرآني، وعلاقته بما قبله وما بعده من الألفاظ، فيقول في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٨] بأن «تنكير الظلم وتوجيه النفي إلىٰ إرادته بصيغة المضارع دون نفسه، وتعليق الحكم بآحاد الجمع المعروف والالتفات إلىٰ الاسم الجليل إشعار بعلة الحكم وبيان لكمال نزاهته ﷻ عن الظلم بما لا مزيد عليه؛ أي ما يريد فردًا من أفراد الظلم لفرد من أفراد العالمين في وقت من الأوقات، فضلًا عن أن يظلمهم»(١)، ولهذا المعنىٰ ذهب الزمخشري إذ يقول: «ونكر «ظلمًا» وقال «للعالمين» علىٰ معنىٰ ما يريد شيئًا من الظلم لأحد من خلقه»(٢).

إن هذه الاختيارات التي ذهب إليها الإمام أبو السعود لم تخرج عما سطره أصحاب علوم القرآن، فالزركشي حصر ستة أسباب لاستعمال الكلمة القرآنية نكرة، وهي(٣): إرادة الوحدة، وإرادة النوع، والتعظيم، والتكثير، والتحقير،

(١) تفسير أبي السعود، لأبي السعود،(١/ ٣٥٥).

(٢) الكشاف، للزمخشري، (١/ ٣٩٢).

(٣) البرهان في علوم القرآن، للزركشي، (٤/ ٩٩٢، ٩٩٣).

والتقليل. وهي نفسها الأسباب التي ذكرها السيوطي(١).

ومن خبايا التنكير التي قد لا يَنتبه إليها العامَّةُ: مجيء الكلمات النكرات منوَّنة في القرآن الكريم، وقد جاء فيها أبو السعود بالعجب العجاب، الذي لا يظفر بدره إلا ذوو الألباب، ممن يَسَّر الله لهم الأسباب، وذَلَّل لهم الصعاب، ففتح لهم الباب، وجلىٰ لهم أسرار الكتاب، فحلا لهم السهر معه وطاب، فهو يرىٰ بأن ورود الكلمة في القرآن الكريم نكرة منونة غالبًا ما يرتبط بتفخيم المنون وإظهار قيمته.

ونذكر علىٰ سبيل المثال بعض المواضع التي توقف عندها الشيخ في هذا الباب؛ ومنها:

قوله تعالىٰ: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٥] فتنوين «رضوان» هنا يفيد الفخامة معنىٰ «رضوان وأي رضوان، لا يقادر قدره، كائن من الله ﷻ»(٢).

ويذهب في موضع آخر إلىٰ أن تنوين المفرد هو أيضًا للتفخيم وليس للدلالة علىٰ المفرد في حد ذاته، وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ٤٩]، يعلق الشيخ قائلًا بأن التنوين للتفخيم دون الوحدة لظهور تعددها. ولقد صدق الشيخ، فالله تعالىٰ يقول في محكم كتابه: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨]، فالله تعالىٰ يتحدث عن الإحصاء ويذكر المعدود بصيغة المفرد، فكيف يحصىٰ ما هو مفرد؟ وهنا يظهر أن طريق الدراسة الأسلوبية يختلف عن طريق الدراسة اللغوية والنحوية، فهذه

(١) الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، (٢/ ٢١٢).

(٢) نفسه، (١/ ٤٥٢).

الثانية تتوقف عند حدود نعت كلمة «آية» بأنها لفظ دال على المفرد الذي لا يتعدى الواحد، أما الأولى فتبين أن الأمر يتعلق بمسلك أسلوبي له دلالة خاصة.

وغالبًا ما ترتبط الفخامة الذاتية في الكلمة مع الفخامة الإضافية للذات الإلهية، كما هو الشأن في «مغفرة» قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٦]، وفي قوله أيضًا: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

والشيء نفسه يقال في قوله تعالى: ﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٤] أي: رجعوا ملتبسين بنعمة عظيمة لا يقادر قدرها.

المبحث الثالث

الإظهار والإضمار

من النكات التي نبه عليها أبو السعود في تفسيره هذا الوجه من أوجه الإعجاز القرآني، وخصوصًا أسرار الإظهار في موضع الإضمار، وقدم لذلك دلالات وتأويلات تتراوح بين المعاني الآتية:

١- **تعميم الحكم**، كما في قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢]، فإيثار الإظهار علىٰ الإضمار في هذه الآية «لتعميم الحكم بكل الكفرة والإشعار بعلته، فإن سخط الله تعالىٰ عليهم بسبب كفرهم والإيذان بأن التولي عن الطاعة كفر، وبأن محبته ﷻ خاصة بالمؤمنين»(١).

٢- **العناية**، ففي قوله تعالىٰ: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤١] يرىٰ أبو السعود أن إظهار اسم الجلالة في موضع الإضمار لإظهار مزيد الاعتناء بشأن التمحيص.

٣- **التربية والمهابة**، ففي قوله تعالىٰ: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤] أظهر اسم الجلالة في موضع يستلزم الإضمار لغاية خفية، وهي تربية العناية والمهابة؛ أي تربية سلوك المهابة من الله ﷻ من طرف العباد.

(١) تفسير أبي السعود، لأبي السعود، (١/ ٤٦٦).

٤- **المبالغة والتهويل:** وهي إحدىٰ مقاصد هذا الباب التي تنبه لها المفسر ﷺ، فقد أظهر العزيز ﷻ اسمه في موضع الإضمار في قوله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ٩٨] «لإظهار التربية علىٰ المهابة وتهويل الخطب»(١).

فإذا كان الإظهار في موضع الإضمار يعد مخالفة للأصل في تركيب الكلام كما ذهب إلىٰ ذلك الزركشي إذ قال: «والأصل أنه إذا ذكر [الاسم] ثانيًا أن يذكر مضمرًا للاستغناء عنه بالظاهر السابق، كما أن الأصل في الأسماء الإعراب»(٢)، فإنه بخلاف ذلك في الكتاب المعجز، وله من الدلالات الطريفة، والنكات البيانية -من مثل ما تقدم ذكره- ما يكشف عن قيمة أسلوبية ظاهرة نابعة من اهتمام الشيخ بالبعد الدلالي.

وقد تنبَّه إلىٰ ذلك الزجاج (ت ٣١١هـ) قديمًا كما في قول الله تعالىٰ من نفس السورة: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [آل عمران: ١٠٩] إذ يقول معلقًا عن الآية: «لو كانت (وإليه ترجع الأمور) لكان حسنًا، ولكن إعادة اسم الله أفخم وأوكد، والعرب إذا جرىٰ ذكر شيء مفخم أعادوا لفظه مظهرًا. أنشد النحويون قول الشاعر: لا أرىٰ الموت ... فأعادوا ذكر الموت لفخامته في نفوسهم»(٣)، ولكنه عمم ذلك، أما أبو السعود فإنه جعل لذلك تفسيرات أخرىٰ، كما مرَّ معنا.

---

(١) تفسير أبي السعود، لأبي السعود، (١/ ٥٢١).

(٢) البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ٢/ ٥٧٢. وقد ذكر الزركشي سبعة عشر سببًا للخروج عن الأصل؛ ومنها: قصد التعظيم، وقصد الإهانة والتحقير، والاستلذاذ بذكره، وزيادة التقدير، وإزالة اللبس ... (١/ ٥٧٣-٥٨٠).

(٣) معاني القرآن، للزجاج، (٣/ ٢٨٢).

المبحث الرابع

اختيار صيغة بدل أخرى

إن القارئ المتدبر لكتاب الله تعالىٰ تستوقفه مجموعة من الظواهر اللغوية والبلاغية التي استفرد بها هذا الكتاب وجاء فيها بالعجيب العجاب، فأعجز بها وأمتع، وأطرب وأقنع، وقد ساق أبو السعود مما فتح عليه به الكريم الودود، ما يدل علىٰ عظمة خالق هذا الوجود.

لقد أثار هذا الباب الشيخ أبا السعود وتوقف عند مجموعة من الصيغ، محاولًا إعطاء مجموعة من التأويلات التي تتناسب وسياق القول، ومن الأمثلة إيثار صيغة الجمع في قوله تعالىٰ: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾ [آل عمران: ١٣]، فتأويل ذلك عند أبي السعود «للدلالة علىٰ شمول الرؤية لكل واحد من آحاد الفئة. ومما يفيده أيضًا تفضيل صيغة الجمع، دلالة الجلالة والتعظيم كما في قوله تعالىٰ ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ [آل عمران: ٨٤]، يقول في ذلك: «والجمع لإظهار جلالة قدره ﷺ ورفعة محله بأمره أن يتكلم عن نفسه علىٰ ديدن الملوك»[(١)]. وتظهر هذه الدلالة في موضع آخر، وهو قوله تعالىٰ: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩]، فاستعمل جمع الملائكة للدلالة علىٰ تعظيم جبريل لأنه رئيسهم.

(١) تفسير أبي السعود، لأبي السعود، (١/ ٥٠٨).

وفي موضع آخر يربط تفضيل صيغة المضارع على غيرها من صيغ الفعل لإفادة الاستمرار والدوام؛ ومن أمثلة ذلك:

قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦]، هذا بخصوص استعمال المضارع في الإثبات، وما قيل عنه في هذا الاستعمال يقال عنه في الاستعمال في النفي، ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٨] فدخول حرف النفي «ما» على صيغة المضارعة يدل على دوام الانتفاء.

وفي موضع آخر جمع النظم القرآني بين صيغتي الماضي والاستقبال للدلالة على نفس الغرض وهو الاستمرار، كما هو الحال؛ ففي قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦] يقول: «والجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل للدلالة على استمرار كفرهم أو على مضيه في الدنيا»(١).

هذه الدلالة على الاستمرار والتجدد هي أكثر ما أثاره المفسر، وربطه باستعمال صيغ مختلفة، ومنها التعبير باسم الفاعل في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢] فإيثار اسم الفاعل على الاسم الموصول هنا لأجل إفادة الاستمرار على الصبر، بالإضافة إلى غاية جمالية أخرى سبق الحديث عنها؛ وهي التأخير لمراعاة الفواصل.

ويتوقف أبو السعود عند صيغة المبالغة، ويرى بأن استعمالها في مواضع سورة آل عمران جاء لغايتين:

الأولى: هي التشديد في الوعيد؛ كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ٩٨].

(١) تفسير أبي السعود، لأبي السعود، (١/ ٥٣١).

والثانية: هي التأكيد؛ كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران: ١٨٢].

ويربط المفسر تفضيل صيغة علىٰ أخرىٰ بالدلالة؛ إذ يرىٰ أن تفضيل صيغة الاسم بدل الفعل يفيد الاستمرار كما في قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى﴾ [آل عمران: ١٥٦]، فاختيار التعبير بالاسم بدل الفعل «غزوا» لهذه العلة المذكورة. وكذلك التعبير بالماضي عن الشيء لإفادة تحققه من غير شك، وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

المبحث الخامس

مادة الكلمة

يمتاز الكتاب الكريم بدقة اختيار كلماته؛ فالمتفكر في القرآن يلحظ تلك الدقة في اختيار الكلمة المناسبة للمعنىٰ المناسب، وتلك المشاكلة بين الألفاظ والمعاني التي تدل عليها، فهي ألفاظ خفيفة علىٰ الألسن، يلتذ به السمع، وتطرب لها النفس. «فكل كلمة منه لها من نفسها طرب، ومن ذاتها عجب، ومن طلعتها غرة، ومن بهجتها درة»(١)، كما قال الزركشي رحمه الله.

فمعلوم أن اللغة العربية غنية غنىٰ لا مثيل له من حيث المفردات التي تشترك في المعاني، ولكن علماء العربية نبهوا إلىٰ أن ثمة فروقًا دقيقة بين الكلمات التي يراها العامة مترادفات متطابقة من حيث المعاني التي تدل عليها، ولذلك تنبه المفسرون إلىٰ هذا المسلك في القرآن الكريم وكشفوا بعض نوادره، ومنهم أبو السعود.

يقف الشيخ مع أول نكتة في هذا الباب عند قوله تعالىٰ: ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣]، لقد كانت أمام النص القرآني في هذا الموضع كلمات بدائل من قبيل «الله» و«خالقك» وغيرها؛ ولكنه آثر لفظ «ربك»، فاختار بذلك عنوان الربوبية «للإشعار بعلة وجوب الامتثال بالأمر»(٢). ونفس

(١) البرهان في علوم القرآن، للزركشي، (١/ ٧).

(٢) تفسير أبي السعود، لأبي السعود، (١/ ٤٨٠).

العلة في اختيار كلمة «ربكم» في قوله تعالىٰ: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [آل عمران: ٤٩]، وهي تأكيد إيجاب الامتثال لما سيأتي من الأوامر.

ثم يكشف سرًّا آخر من أسرار اختيار الكلمة في قوله تعالىٰ: ﴿مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣] فقد اختار الله ﷻ كلمة «السجود» دون غيرها من أركان الصلاة؛ «لكونه أدل علىٰ كمال الخضوع»(١). فهيئة السجود تدل علىٰ مطلق الاستسلام، وتمام الذلة لله تعالىٰ، وفي ذلك تشريف لهم بالقرب منه تعالىٰ، وكما مر معنا ففي الحديث الشريف: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد**»(٢).

ويتوقف الشيخ في قصة زكريا ومريم عليهما السلام وسر استعمال الفعل «يفعل» في الأولىٰ في قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٤٠]، والفعل «يخلق» في الثانية في قوله ﷻ: ﴿قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧]، فيرىٰ بأن الأمر لم يكن عبثًا، وإنما العلة في ذلك كون ولادة العذراء من غير أن يمسها بشر أبدع وأغرب من ولادة عجوز عاقر من شيخٍ فانٍ، فكان استعمال فعل «الخلق» الذي ينبئ عن الاختراع أنسب بهذا المقام من مطلق «الفعل». وهكذا ما كان أي فعل ليناسب هذا المقام إلا فعل «خلق». فسبحان صاحب الكتاب الذي لا تنقضي عجائبه، ولا تحصىٰ لطائفه.

ومن اللطائف في هذا الباب أيضًا: التعبير بالأيدي في موضع الأنفس في

(١) تفسير أبي السعود، لأبي السعود، (١/ ٥٣٧).

(٢) صحيح مسلم، لمسلم، رقم(٤٨٢).

قول الله ﷻ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠] وذلك «لما أن عامة أفاعيلها تزاوَل بهن»(١) أي: أن أغلب ما يرتكبه الإنسان من المعاصي يكون بالأيدي بطريقة من الطرق.

ويربط لطائف هذا الباب بالمتلقي وانفعاله بكلام الرسول ﷺ، وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾ [آل عمران: ١٩٣]، وفي ذلك يقول: «والمراد بالمنادي: الرسول ﷺ ... وإيثاره علىٰ الداعي؛ للدلالة علىٰ كمال اعتنائه بشأن الدعوة، وتبليغها إلىٰ الداني والقاصي لما فيه من الإيذان برفع الصوت»(٢).

❁ ❁ ❁

(١) تفسير أبي السعود، لأبي االسعود، (١/ ٦١٣).

(٢) نفسه، (١/ ٦٢٩).

المبحث السادس

التكرار

حقيقة التكرار «أن يأتي المتكلم بلفظ، ثم يعيده بعينه، سواء كان اللفظ متفق المعنىٰ أو مختلفًا، أو يأتي بمعنىٰ ثم يعيده، وهذا من شرطه اتفاق المعنىٰ الأول»(١). وقد ذهب ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) إلىٰ أن التكرار يكون لإشباع المعنىٰ والاتساع في الألفاظ إذ يقول: «وأما تكرار المعنىٰ بلفظين مختلفين فلإشباع المعنىٰ، والاتساع في الألفاظ. وذلك كقول القائل: آمرك بالوفاء وأنهاك عن الغدر، والأمر بالوفاء هو النهي عن الغدر، وآمركم بالتواصل وأنهاكم عن التقاطع، والأمر بالتواصل هو النهي عن التقاطع»(٢).

أما أبو السعود فله وقفات مع هذه الظاهرة في سورة آل عمران، يتفق في بعضها مع ما ذهب إليه ابن قتيبة، ويتفرد بدلالات أخرىٰ للتكرار في بعضها الآخر.

فمن المواضع التي يتوافق فيها مع ابن قتيبة في أن التكرار يفيد التوكيد قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢]. ومن المواضع التي كان فيها لأبي السعود رأي آخر في تأويل دلالة التكرار قوله تعالىٰ: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨/ ٣٠]، فهو يرىٰ

(١) الفوائد المشوق إلىٰ علوم القرآن، لابن القيم (نسبة خطأ)، (ص١٦٣).

(٢) تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة، (ص٢٣٦).

أن التكرير «لا للتأكيد فقط بل لإفادة ما يفيده قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠] من أن تحذيره تعالىٰ من رأفته بهم ورحمته الواسعة، أو أن رأفته بهم لا تمنع تحقيق ما حذرهموه من عقابه، وأن تحذيره ليس مبنيًّا علىٰ تناسي صفة الرحمة، بل هو متحقق مع تحققها»(١).

وقد يأتي التكرار لا ليفيد المعنىٰ نفسه؛ ولكن للدلالة علىٰ تعدد الحدث، كما في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢] فأبو السعود يذهب إلىٰ احتمال أن التكرير هنا يفيد الإشعار بما بين القتلين من التفاوت أو باختلافهما في الوقت. وهذا ما ألمح إليه ابن القيم حين قال: «وإن كان اللفظان متفقين والمعنىٰ مختلف، فالفائدة في الإتيان به الدلالة علىٰ المعنيين المختلفين»(٢).

ومن دلالات التكرار عند أبي السعود المبالغة في التقريع والتوبيخ، كما هو الشأن في قوله تعالىٰ: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ ٩٨ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ تَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَأَنتُمۡ شُهَدَآءُۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [آل عمران: ٩٨/ ٩٩]، فتكرير قوله: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ للمبالغة في حمله ﷺ علىٰ تقريعهم وتوبيخهم لشناعة أفعالهم.

ويزيح الشيخ اللثام عن سر آخر من أسرار التكرار في قول العزيز الغفار: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ ١٠٠ وَكَيۡفَ تَكۡفُرُونَ وَأَنتُمۡ تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمۡ رَسُولُهُۥۗ وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ

(١) تفسير أبي السعود، لأبي السعود، (١/ ٤٦٤).

(٢) الفوائد المشوق إلىٰ علوم القرآن، لابن القيم (نسبة خطأ)، (ص١٦٣).

صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٖ ١٠١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٠-١٠٣]، فيقول: «وتكرير الخطاب بعنوان الإيمان تشريف إثر تشريف»(١).

❁ ❁ ❁

(١) تفسير أبي السعود، لأبي السعود،(١/ ٥٢٩).

المبحث السابع

الالتفـــات

الالتفات هو «انصراف المتكلم عن المخاطبة إلىٰ الإخبار، وعن الإخبار إلىٰ المخاطبة وما يشبه ذلك، ومن الالتفات الانصراف عن معنىٰ يكون فيه إلىٰ معنىٰ آخر»(١)، فالالتفات بهذا المعنىٰ ظاهرة تحول أسلوبي، وقد حظيت بعناية الدارسين العرب منذ القديم: لغويين وبلاغيين. مما يبين أهمية هذا المسلك الأسلوبي وخصوصًا في النص القرآني، ويرتبط أساسًا بمتلقي الخطاب، من أجل ضمان إنصاته، وتيقظه، فهو كما قال الزكشي: «وجهه حث السامع وبعثه علىٰ الاستماع»(٢).

وقد عني بهذه الظاهرة أبو السعود في تفسيره، وجاء في تأويلها بعدة لطائف، نذكر منها:

قوله تعالىٰ: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [آل عمران: ١١]، ففي هذا الموضع يؤول الشيخ الالتفاتين تأويلين مختلفين؛ فالالتفات الأول إلىٰ التكلم وقع جريًا علىٰ سنن الكبرياء لله تعالىٰ، والثاني إلىٰ الغيبة، ويدل علىٰ إظهار الجلالة لتربية المهابة

(١) كتاب البديع، لابن المعتز، (ص٥٨).

(٢) البرهان في علوم القرآن، للزركشي، (٤/ ٨١٦).

وإدخال الروعة. وبنفس هذا المعنىٰ الثاني يفسر الالتفات في قوله تعالىٰ: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٠].

وفي قوله عز من قائل: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٨]، وقع الالتفات إلىٰ التكلم بنون العظمة مع كون التلاوة علىٰ لسان جبريل عليه السلام لإبراز كمال العناية بالتلاوة.

أما في قوله تعالىٰ: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨٠]، فإن الشيخ يرىٰ بأن الالتفات وقع هنا لغاية حجاجية تأثيرية، وهي المبالغة في الوعيد والإشعار باشتداد غضب الرحمن الناتج من ذكر قبائحهم.

الخاتمة

بعدما طفنا في رياض تفسير أبي السعود لسورة آل عمران، ورتعنا في أخصب الجنان، وقطفنا منها أشهىٰ ثمار البيان، وشممنا أزكىٰ روائح المسك والريحان، نستطيع أن نخلص إلىٰ ما يأتي:

١- يعد تفسير «إرشاد العقل السليم لمزايا الكتاب الكريم» لأبي السعود من أعظم التفاسير وأجلها؛ إنه تفسير مشحون بألوان النكات البيانية، واللفتات البلاغية، واللطائف الأسلوبية، وهذه هي السمات التي ميزته عن غيره من التفاسير. وهو بذلك يشكل مرجعًا مهمًّا للباحثين في البلاغة والأسلوبية، يتفوق علىٰ كتب البلاغة الأخرىٰ التي وجهت عنايتها في الغالب إلىٰ التقسيمات والتشقيقات، وكررت الأمثلة نفسها تقريبًا بخصوص الظواهر البلاغية المدروسة.

٢- كان أبو السعود واعيًا تمام الوعي بتفرد الأسلوب القرآني في التعبير، وأن ما من خاصية أسلوبية في الكتاب الكريم إلا ولها دلالتها التي تتطلب وقوفًا وتفكرًا وتدبرًا، وهي دلالة متغيرة تختلف من سياق إلىٰ آخر، وبالتالي استطاع أن يقدم تفسيرات وتأويلات لهذه الأساليب التي خرج فيها التعبير القرآني عن القواعد المعيارية، وهو بذلك يرد علىٰ بعض من عدُّوا ذلك خطأ ومدخلًا للطعن في القرآن الكريم.

٣- لقد فتح الله علىٰ أبي السعود ومنَّ عليه بقلب متفكر، وعقل ثاقب متدبر، سخرهما للنظر في الكتاب العزيز نظرة تعمق، عملًا بمطلب التدبر الذي أمر به الجليل الكريم، وجعله من أسمىٰ مقامات تلقي كتابه الكريم، فحاول هذا المفسر سبر أغوار القرآن إيمانًا منه بأن عجائبه لا تنقضي ولا يحيط بها بشر مهما بلغ من العلم، حتىٰ وإن تعلق الأمر بمجرد لفظة من ألفاظه أو سورة من سوره، وقد روي عن علي بن أبي طالب أنه قال: «لو أردت أن أملي وقر بعير علىٰ الفاتحة لفعلت»(١).

٤- لقد أسهم أبو السعود بتفسيره هذا في وضع لبنة من لبنات التعامل مع النص القرآني، باعتباره نصًّا قابلًا للقراءة بمناهج متعددة، ولكن بضوابط علمية تراعي خصوصيته وتفرده عن غيره من الخطابات الأخرىٰ، وتتطلب علمًا راسخًا وإيمانًا صادقًا في الآن نفسه.

٥- إن المتوقف عند تفسير أبي السعود بتمعن، وروية وإعمال فكر، ومداومة نظر، يستطيع أن يمتلك من مهارات التدبر والتفكر في الكتاب الكريم ما يمكِّنه من أن يفهمه باعتبار نفسه هو المخاطب بهذا الكلام، وأن يُنتج قراءته الخاصة له في إطار الضوابط الشرعية. وقد أمرنا بذلك في قوله تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]. وهذا مطلب لازم فيه حكمة من حكم الله الجليل، ذلك أنه لو شاء لأمر نبيه ﷺ ببيان معاني الكتاب كلها، ولكن حكمته اقتضت أنه تعالىٰ «أراد أن

(١) البرهان في علوم القرآن، للزركشي، (١/ ١٢).

يتفكر عباده في كتابه، فلم يأمر نبيه بالتنصيص على المراد»[1]، كما قال القاضي شمس الدين الخويي رحمه الله.

٦- إن هذا المسلك في التفسير لأبي السعود والذي يحق لنا أن نسميه «أسلوبيًّا»- ما دام يبحث في طرق التعبير في القرآن الكريم- جاء ليغطي ذلك العجز الذي طبع الدراسة اللغوية والنحوية التي وقفت عند تبرير الحركة الإعرابية، وتقدير المحذوفات والمضمرات محاولة دفع شبهة خروج الأساليب القرآنية عن التراكيب النمطية، غافلة أو متغافلة أن في ذلك أسرارًا هي مداخل لنوع آخر من أنواع إعجاز هذا الكتاب الخالد.

٧- تأكد لنا من خلال هذا البحث أن للقرآن الكريم نظمه المتفرد الذي لا يرقى إليه أي نظم بشري، ومن خصائص هذا النظم تنويع الأساليب، ونهج المغايرة الأسلوبية بمخالفة بعض التراكيب النمطية؛ وذلك لغايات دلالية وتداولية وجمالية في آنٍ واحدٍ.

٨- إذا كانت هذه المخالفات لقواعد القول المعيارية تعتبر في كلام البشر العاديين، في بعض الأحيان، خطأ ولحنًا ومجانبة للصواب، فإن الأمر في الأسلوب القرآني بخلاف ذلك، ففي كل مخالفة أو عدول أو اختيار حكمة نكتة دلالية وجمالية تتعلق إما بالمتكلم -الله ﷻ- وإما بحال المخاطب، وإما بسياق المقول. مما يعني أن خلف كل استعمال

(١) نفسه، (١/ ٢٦).

قرآني حكمة ربانية تفوق حكم البشر، وهذا جانب من جوانب إعجاز الكتاب الكريم.

٩- تأكدت لنا جدوىٰ الأسلوبية، باعتبارها علمًا حديثًا، في كشف أسرار التنزيل، وتدليل معانيه اعتمادًا علىٰ آليتي التدبر والتأويل، لكشف إعجازه الأسلوبي الذي رفعه إلىٰ الصرح العالي، ونزهه عن الشبهات.

١٠- إن بعض مقولات الأسلوبية صالحة هنا لتسري علىٰ ما قدمه أبو السعود؛ ولعل أهمها: مقولة الاختيار، ومقولة الانزياح، القائمة علىٰ خرق المعيار القاعدي، ومقولة المقارنة الأسلوبية؛ ذلك أن اختيارات الأسلوب القرآني وانزياحاته مقصودة لغايات وحكم دلالية وجمالية، تدل مقارنته مع الأساليب البشرية علىٰ تميزه عن كل كلام بشري، مما يزكي جانبًا من جوانب إعجازه المتعددة.

توصية:

نعتقد أنه آن الأوان اليوم لتجريب ما توصل إليه علم اللسانيات، وتحليل الخطاب من آليات في تحليل الخطاب القرآني، دون قطيعة مع تراثنا الذي قدّم إسهامات غنية يمكن استثمارها وتطعيمها بما استجد عند الغرب، مع تأكيدنا علىٰ ضرورة مراعاة خصوصيات القرآن الكريم؛ إيمانًا منا أن إعجازه مستمر ومتجدد؛ مهما تطورت آليات التحليل.

فحري بالباحثين المسلمين أن يتوجهوا في دراساتهم القرآنية إلىٰ استثمار نتائج العلم الحديث، ليبرزوا إعجاز هذا القرآن الكريم بصور مختلفة، ويستدلوا

علىٰ أنه ليس من كلام البشر؛ ولكنه كتاب معجز من عند الله رب البشر، وأنه هو الرسالة الصالحة لإدراة أمور البشرية المادية والمعنوية التي تتخبط اليوم تحت وطأة العولمة المتوحشة التي تؤله المادة، وفي ظل الصراعات المادية التي أفرغت الإنسان من معناه الروحي. وسيكون لهذه الدراسات أثرها الكبير إذا ما كانت بلغات أجنبية؛ علىٰ رأسها الإنجليزية.

فسبحان من أنزل الذِّكر، وحفظه بمكنون السر، وتحدّىٰ بإعجازه جميع البشر، وصلىٰ الله علىٰ النبي المطهر الأطهر، وعلىٰ آله وصحبه ذوي الفضل والبر، والحمد لله العظيم الأكبر.

فهرس المصادر والمراجع

- «القرآن الكريم». رواية حفص عن عاصم.
- «الإتقان في علوم القرآن». السيوطي، جلال الدين. تحقيق: طه عبد الرءوف سعد. د.ط، القاهرة: المكتبة الوقفية، ٢٠٠٨.
- «الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم». الكواز، محمد كريم. ط١، بنغازي: دار الكتب الوطنية، ١٤٢٦هـ.
- «الأسلوب، دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية». الشايب، أحمد. ط٨، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٩١.
- «الأسلوبية والبيان العربي». خفاجي، محمد عبد المنعم وآخران. ط١، القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.
- «الأسلوبية». جيرو، بيير. ترجمة: منذر عياشي. ط٢، حلب: مركز الإنماء الحضاري، ١٩٩٤.
- «إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا الكتاب الكريم». أبو السعود، العمادي محمد بن محمد. تحقيق: عبد القادر أحمد عطا. د.ط، الرياض: مكتبة الرياض الحديثة، (د.ت).
- «البحث الأسلوبي معاصرة وتراث». عيد، رجاء. د.ط، الإسكندرية: منشأة المعارف، ١٩٩٣.
- «البرهان في علوم القرآن». الزركشي، بدر الدين. تحقيق: وائل أحمد عبد الرحمن. د.ط، القاهرة: دار التوفيقية للتراث، (د. ت).
- «البلاغة والأسلوبية نحو نموذج سيميائي لتحليل النص». هنريش، بليت. ترجمة: محمد العمري. د.ط، بيروت: إفريقيا الشرق، ١٩٩٩.
- «البلاغة والأسلوبية». عبد المطلب، محمد. ط١، القاهارة: مكتبة لبنان ناشرون، والشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، ١٩٩٤.

- «بنية اللغة الشعرية». كوهن، جان. ترجمة: محمد العمري ومحمد الولي. ط١، الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، ١٩٨٦.
- «تأويل مشكل القرآن». ابن قتيبة الينوري، أبو محمد. تحقيق: السيد أحمد صقر. ط٢، القاهرة: مكتبة دار التراث، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.
- «تاريخ الأدب العربي». بروكلمان، كارل. ترجمة: الدكتور عبد الحليم النجار، ط٥، القاهرة: دار المعارف، (د. ت).
- «دلائل الإعجاز»، الجرجاني، عبد القاهر. قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر. د.ط، القاهرة: مكتبة الخانجي، (د. ت).
- «شذرات الذهب في أخبار من ذهب». ابن العماد، عبد الحي بن أحمد. ط٢، بيروت: دار المسيرة، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.
- «صحيح مسلم»، مسلم بن الحجاج، أبو الحسين اعتنىٰ به: أبو قتيبة؛ نظر محمد الفاريابي. ط١، الرياض: دار طيبة، ١٤٢٧هـ.
- «علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته». فضل، صلاح. ط١، القاهرة: دار الشروق، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.
- «الفوائد المشوق إلىٰ علوم القرآن وعلم البيان». ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله شمس الدين. تحقيق: جماعة من العلماء. د.ط، بيروت: دار الكتب العلمية، (د. ت).
- «في الأسلوبية والأسلوب». اللويمي، محمد. ط١، الرياض: مطابع الحميضي، (د. ت).
- «الكتاب». سيبويه، عمرو بن عثمان. تحقيق: عبد السلام هارون. د.ط، القاهرة: الخانجي، ١٩٨٨.
- «كتاب البديع». ابن المعتز، عبد الله. تعليق: إغناطيوس تشقوفسكي، ط٣، بيروت: دار المسيرة، ١٤٠٢هـ.
- «الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل»، الزمخشري، جار الله. تحقيق: عبد السلام شاهين. ط٥، بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٩.

- «كشف الظنون». حاجي، خليفة. د.ط، بيروت: دار إحياء التراث العربي، (د. ت).
- «لسان العرب». ابن منظور. د.ط، القاهرة: طبعة دار المعارف، (د. ت).
- «اللغة والإبداع مبادئ علم الأسلوب العربي». عياد، شكري محمد. ط١، بيروت: إنترناشيونال، ١٩٨٨م.
- «معاني القرآن». الزجاج، أبو إسحاق. شرح وتحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، ط١، بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
- «معجم المصطلحات الأدبية». علوش، سعيد. د. ط، بيروت: دار الكتاب اللبناني، الدار البيضاء: سوثبرس، د. ت.
- «مقدمة ابن خلدون». ابن خلدون، عبد الرحمن. تحقيق: عبد الله محمد الدرويش. ط١، دمشق: دار البلخي، ١٤٢٥هـ.
- «نظرية البنائية في النقد الأدبي». فضل، صلاح. ط٣، بيروت: منشورات دار الآفاق الجديدة، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

المجلات:

- «الأسلوبية اللسانية». أولريش، بيوشل. ترجمة: خالد محمود جمعة، نوافذ، الرباط، (١٣)، جمادى الآخرة ١٤٢١هـ/ سبتمبر ٢٠٠٠، ١١١-١٧٢.
- «المغايرة الأسلوبية في القرآن». خضير نيشان، عبد الهادي. مجلة اللغة العربية دمشق. المجلد ٨٦، الجزء ١، ١٤٣٢، ٩٥-١١٢.

فهرس الموضوعات

مستخلص البحث ١١١

المقدمة ١١٥

١- موضوع البحث وأهدافه ١١٥

٢- دواعي البحث وإشكاليته ١١٥

٣- الدراسات السابقة ١١٧

٤- منهج البحث ١١٨

٥- خطة البحث ١١٨

مدخل ١٢٠

١- ترجمة أبي السعود ١٢٢

٢- بين يدي التفسير ١٢٤

٣- الأسلوب والأسلوبية ١٢٥

٤- بين البلاغة والأسلوبية ١٢٩

المبحث الأول: التقديم والتأخير ١٣٥

المبحث الثاني: التعريف والتنكير ١٣٩

المبحث الثالث: الإظهار والإضمار ١٤٣

المبحث الرابع: اختيار صيغة بدل أخرى ١٤٥

المبحث الخامس: مادة الكلمة ١٤٨

المبحث السادس: التكرار ١٥١

المبحث السابع: الالتفات ١٥٤
الخاتمة ١٥٦
فهرس المصادر والمراجع ١٦١
فهرس الموضوعات ١٦٤

TADABBUR MAGAZINE

Refereed Scientific Biannual Journal specialized in the Arbitration and Publication of the Researches and Studies related to the Areas of Meditating on the Holy Qur'an

Number 9; volume 5 Muharram 1442 AH, corresponding to August 2020

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]

TADABBUR MAGAZINE Index:

- **Extraction of Rhetorical Rules from the Qira'at (Recitation) of the Holy Quran an Empirical Study**
  Dr. Talal bin Ahmed bin Ali bin Mohammed
- **Stylistic Inimitability in the Tafsir of Abu Al Saud "Tafsir of Surat Al-Imran as an Example"**
  Dr. Miloud Arnibah
- **The Arabic of the Holy Quran between the covenant of Arabs and the covenant of Quran**
  Bouchra Bahi
- **Reasons for Preserving Allah's Grace and Avoiding His Wrath**
  Dr. Munira Abdul Aziz bin Ali Saui
- **Indications of the Quranic Commands to follow the Sunnah of Prophet Mohammed: An Analytical Study**
  Dr. Bassam Mosbah Aghbar
- **Report on a Thesis entitled: "Sheikh Abdul Rahman Al Sa'adi and His Efforts in the Contemplation of the Qur'an"**
  Researcher Zakarya bin Abdul Rahman bin Mohammed Ba Fadhl
- **Report on Moddaker Program of the Tafsir Center for Quranic Studies**
- **Report on the Forum "Renovation in the Contemporary Tafseer (Quranic Exegeses): " Presentation and Criticism.» Organized by The Laboratory of the Quranic Studies and the Sunnah.**

25 SR